مختصر خطبة صلاة الجمعة 13/1/2023 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(مفهوم القضاء والقدر)

شهد سيدنا عقبة بن نافع فتح مصر، ثم افتتح السودان، ثم بنى مدينة القيروان بتونس، ثم فتح المغرب الأقصى، ولما وصل إلى بحر الظلمات (البحر الأطلنطي أو الأطلسي) قال كلمته الشهيرة: "اللهمّ لولا هذا البحر لمضيت مجاهداً في سبيلك حتى أفتح الدنيا لنور الإسلام أو أهلك دونه". بلغ البحر، ثم عاد الجيش الإسلامي يسدّ ما ترك من فجوات ويُكمِل ما أجّل من فتوح حتى شمل الفتح الشمال الإفريقي كلّه.

هكذا فهم المسلمون الأُوَل القضاء والقدر: أَقْدِمْ وتوكَّل ولا تتوانَ وتتواكل، اعمل ولا تعجز واجهد ولا تكسل، وما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك وما قضاه الله وقدّره سيكون.

خرج عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى الشام حتى إذا كان بسَرْغ – اسم مكان– لقيه أبو عبيدة بن الجراح فأخبره أن الوباء قد وقع بالشام، فاستشار عمر مَن معه من مشيخة قريش، هل يدخل الشام وفيها الوباء أو يرجع، فقالوا: نرى أن ترجع بالناس ولا تقدمهم على هذا الوباء.

فنادى عمر في الناس: إني مصبح على ظهر، فأصبحوا عليه. فقال أبو عبيدة بن الجراح: أفراراً من قدر الله؟ فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة، نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله، أرأيت إن كان لك إبل هبطت وادياً له عدوتان: إحداهما خصيبة، والأخرى مجدبة؛ أليس إن رعيت الخصيبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله؟ قال: فجاء عبد الرحمن بن عوف– وكان متغيباً في بعض حاجته– فقال: إن عندي في هذا علماً، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **«إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه»**. قال: فحمد الله عمر، ثم انصرف.

هكذا فهم المسلمون الأُوَل القضاء والقدر، أخذاً بالأسباب وتوكلاً على رب الأرباب. وما قضاه الله وقدره سيكون.

جيء بشارب خمر إلى أحد الخلفاء فسأله عن سبب شربه فقال له: إن الله كتب علي ذلك وإن كل شيء بقدر، فأمر الخليفة بجلده حد شرب الخمر وزاده تعزيراً لكذبه على الله، وقال له هذه قدر هذه.

هكذا فهم المسلمون الأُوَل القضاء والقدر، قضاءً لا ينفي المسؤولية عن العبد وقدراً لا يعفيه من واجباته. وما قضاه الله وقدره سيكون.

أيها الإخوة:

الإيمان بالقضاء والقدر يعطي المؤمن طمأنينة بأن ما أصابه بعد كل ما بذل من جهد ودأب لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، فلا هو يجزع عند الضراء، ولا هو يتكبّر عند السراء.

الإيمان بالقضاء والقدر يدفع المؤمن إلى اقتحام الصعاب وقطع المفاوز إذ يدفع عنه هذا الإيمان الخوف والهلع.

الإيمان بالقضاء والقدر يصدُّ المرء عن حسد ذوي النعمة والاعتراض على ذوي الرتبة، إذ كل شيء بقدر الله وقضائه، والمؤمن بقضاء الله وقدره لا ييأس ولا يقنط ولا يذهب نحو الانتحار؛ لأنه يعلم أن قضاء الله له بالخير يأتي بلمحة وأن قدر الله له بالفرج يأتي بلحظة.

والحمد لله رب العالمين